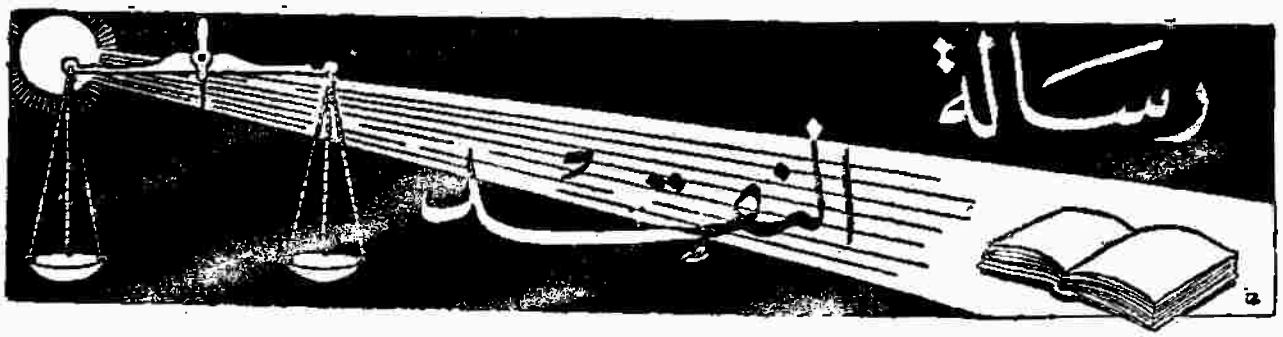

على هامش كتاب

حيـــاة الرافعى

تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان

للأستاذ محمود أبو ريه

أقبلت على قراءة كتاب (حياة الرافعى) لا كما يقبل عليها غيرى من أهل الأدب ومحبى الرافعى، وذلك لما كان بينى وبين الرافعى رحمه الله من صداقة امتدت أكثر من ربع قرن فعرفت من أحواله وأنبائه شيئاً كثيراً، فما فتحت عينى على هذا السفر النفيس الذى تحدث عن هذه الحياة المباركة حتى رجعت إلى ذاكرتى من ناحية، وإلى كتب الرافعى الخاصة التى لدى من ناحية أخرى، لأرى إن كان صديقنا سعيد العريان قد صدق فيما روى وحقق فيما أرّخ، أو هو قد سلك تلك السبل التى يتبعها أكثر المؤرخين من العناية بكثرة الحشد، والتلفيق فى الرواية من ههنا وههنا بلا تمحيص فى ذلك ولا تحقيق، كأن التاريخ لا حرمة له عندهم، والحق لا رعاية لجانبه فى قولهم

جعلت ذلك همى من قراءة كتاب (حياة الرافعى). أما البحث فى قيمته وأثره فى عالم الأدب، وفضل صاحبه فى السبق إلى افتراع هذه الطريقة من الترجمة، وما إلى ذلك من المزايا التى امتاز بها هذا الكتاب، فقد تركت ذلك كله لغيرى ممن يعرضون للنقد أو تقريظه حتى لا يقال إن صديقاً يقرظ صديقه

قرأت الكتاب من ألفه إلى يائه قراءة تدبر ودرس فتخلص لى منه أن أخانا الأستاذ سعيد قد فاز بالحسنيين: حسنى الوفاء للرافعى — والوفاء فى زمننا قد أصبح غريباً بل صار جريمة ومنكراً — وحسنى إحسان العمل من حيث التحقيق فى الدراسة واستيعاب كل ما يتصل بحياة الرافعى حتى خرجت هذه الشخصية الجليلة فى هذا السفر صورة حيـة. ذلك بأنه لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولم يذر شاردة ولا واردة إلا قيدها. بيد أن هناك أمرين ما أظن إلا أن اطراد البحث قد أعجله عن استكمال درسهما

ولأنى أعرف الحق فى هذين الأمرين فقد رأيت إحقاقاً للحق وإنصافاً لمن يتصل بهما أن أستملى بما أعرف على صفحات الرسالة الغراء ليكون من علم قرائها الذين هم صفوة أهل الأدب فى العالم العربى، ومنهم ولا ريب قراء كتاب (حياة الرافعى) لكيلا يفوتهم من أمر هذه الحياة الجليلة شىء

تحدث الأستاذ سعيد فى هامش الصفحة ١٣ من هـذا الكتاب قال: (كان للرافعى صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة ...) وهذا القول لو أخذ على إطلاقه لبدا منه أن الرافعى رحمه الله كان من الذين يعتقدون بالتوسل بأصحاب القبور، فيتخذونهم وسطاء بينهم وبين الله يفزعون فى كل ما يهمهم إليهم، ويستعينون بهم فى قضاء مآربهم. وإذا صح ذلك كان مغمزاً فى أعظم جانب من حياة الرافعى، وهو الجانب الدينى؛ لأن التوسل بأصحاب القبور عند المحققين وأهل البصر بالدين إنما هو شرك بالله يبرأ منه كل مسلم صحيح الإيمان. والرافعى رحمه الله كان إماماً فى الدين كما كان إماماً فى الأدب؛ وكان من دعوته فى الحياة أن يعتصم

المسلمون بعروة دينهم الوثقى ، وأن يرجعوا من وثنيتهم إلى الدين الخالص الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

على أن هذا الأمر الذى أشار إليه أخونا سعيد لا يعرف غيرى وجه الحق فيه ، ذلك أنى كنت فى إحدى زياراتى للرافعى بطنطا فى سنة ١٩١٨ وما كدت أجلس إليه حتى قال لى : (أبشر يا أبا رية ، لقد اقتربت ساعة شفائى من علتى إن شاء الله (وهى العلة التى كانت بأذنه). ولما سألته عن مرجع هذه البشرى قال : « لقد رأيت السيد البدوى فى المنام ليلة الأمس قد جاءنى وبشرنى بالشفاء فنهضت من نومى وأنشأت فيه هذه القصيدة» ودفعها إلىّ فقلت له إن هذه القصيدة لو نشرت لكانت فتنة للمسلمين ، فخير لك أن تطويها حتى نرى تأويلها. ولأنه رحمه الله كان يعتقد فى عالم الروح اعتقاداً غريباً وكان يأخذ بالحديث الشريف فى أن دعوة المؤمن على ظهر الغيب تنفع ، وكان يحسن ظنه يستيقن من إخلاصى له حتى كان لا يكتب لى خطاباً إلا ويطلب فى آخره ألا أنساه من الدعوات الطيبة ، فقد كتب لى فى ورقة صغيرة هذه العبارة[1] (أريد أن تذهب الآن إلى جامع السيد وتتوضأ وتصلى بعض ركعات ثم تقرأ ما تيسر من القرآن على نية أن يعجل الله بشفائى ثم تدعو لى بذلك فإن دعاء المؤمن لا يعدله شىء فى سرعة الإجابة مع خلوص النية . وأمس رأيت السيد البدوى فى الرؤيا وبشرنى بالشفاء ولهذا طلبت منك هذا الطلب)

وعلى أن ما طلبه منى ليس فيه شىء من التوسل بالسيد البدوى وإنما هو صلاة لله وقراءة لما تيسر من كتاب الله ودعاء خالص يصعد إلى الله ليعجل بشفائه

وهذا كله عمل خالص لله وحده فقد حاك بصدرى شىء من الشك فى عقيدته ، ورأيت من أجل ذلك أن أتلطف لمعرفة حقيقة ما يعتقد فى التوسل بالمشايخ ، فسألته فى خطاب بعد ذلك بقليل عما يقوله رجال الصوفية من أنه لابد لكل مسلم أن يتخذ (واسطة) من مشايخهم يصل به إلى الله ، وهل هو قد اتخذ هذه (الواسطة) فأجابنى فى كتاب تاريخه (١٥ يولية سنة ١٩١٨) بما يلى :

(... وأنا ألتجئ دائماً إلى الاستمداد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه واسطة الجميع ، ولا أدرى إن كان فىّ استعداد للتلقى عن هذه الغاية البعيدة أم لا)

وبعد أن انقضت شهور على هذه الرؤيا ولم تتحقق البشرى حدثته فى ألا ينشر ما وضعه من شعر فى السيد البدوى وأن يبعده عن ديوانه ، فقال : إن هذا ما سأفعله إن شاء الله وسأجعله مما أهمله من شعرى

هذا هو نبأ توسلات الرافعى بالسيد البدوى الذى تحدث عنه الأستاذ العريان

ومن يقرأ ما كتبه الرافعى فى الدين ووصفه لإسلام المصريين بأنه إسلام فرعونى[1] بما شابه من ذرائع الوثنية ، وما اختلط به من البدع الشركية ، يتبين له صدق ما قلنا وصحة ما روينا وأنه كان طوال حياته حرباً على الدجل والخرافات ، والشعبذة والتوسلات ، تلك التى لا يعرفها دين الإسلام ، وأنه نذر كما يقول الأستاذ سعيد (أن يموت فى الجهاد وفى يده الراية ينافح بها الشرك والضلال ، ويدعو إلى الله ويواصل حملة التطهير[2])

* * *

والأمر الثانى فى قول أخينا سعيد ، من أن السيد رشيد رضا رحمه الله ، لما قرأ مقدمة النسخة الأولى من مجلة البيان المنسوبة إلى الأستاذ الإمام محمد عبده قال : (... لقد كنت حاضراً مجلس الشيخ وسمعت منه هذا الحديث ، ولكن لم أجد له من القيمة الأدبية ما يحملنى على روايته)

وهذا القول لو ثبت على ما رواه صديقنا سعيد من أن مقدمة البيان من وضع الرافعى لكان ذلك طعناً فى خلق إمام كبير من أئمة الدين يذهب بالثقة به وباقى الشك فى الأخذ عنه ، ولكن الذى جرى على وجه التحقيق أنه لما ظهرت مجلة البيان التى أصدرها الأستاذ الكبير عبد الرحمن البرقوقى قابلها حجة الإسلام السيد رشيد رحمه الله بالترحيب والتقريظ ، وكتب عنها كلمة طيبة

(١) أطلعت أخانا سعيد على أصل هذه الورقة فى أوائل شهر مايو الماضى بالقاهرة وكنت معه بنادى دار العلوم وهى من خط الرافعى رحمه الله

(١) تراجع الصفحة العاشرة من الجزء الثانى من كتاب وحى القلم مقالة الاشراق الأدبى .

(٢) تراجع الصفحة ٢٨٢ من كتاب (حياة الرافعى)